لجنة ميتشيل والحمار الذي قطعته شفرة الجرافة حينما جرفت بيت صاحبه

من الأمور الطريفة في تاريخ القضية الفلسطينية أن أول لجنة استقصاء حقائق دولية على الإطلاق وفدت إلى فلسطين كانت مشكلة من عضوين أمريكيين هما هنري كينغ وتشارلس كراين. فقد تقرر في مؤتمر الصلح بباريس سنة ١٩١٩، بناء على اقتراح الرئيس الأمريكي وودرو ولسون وموافقة المؤتمر، إيفاد لجنة ثلاثية (من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة) إلى سوريا وفلسطين بغية " الاطلاع على وجهات نظر السكان ورأيهم في تقرير مصيرهم. " أما لماذا كانت اللجنة التي وصلت إلى المنطقة بالفعل أمريكية صرفة، فذلك لأن كلا من بريطانيا وفرنسا امتنعتا عن المشاركة خشية تسهيل دخول أمريكا إلى المنطقة! ولما كانت الولايات المتحدة آنذاك في دور الاطلاع وجمع المعلومات، ولم تقرر بعد نوع مصالحها ولا تحالفاتها، فإن تقرير لجنة كينغ كراين جاء صادقا وموضوعيا ونزيها. فقد قال : إن دعوى الصهيونية في فلسطين لا تستحق الاكتراث. وحذر مؤتمر الصلح من تجاهل شعور الأهلين العدائي تجاه الصهيونية وأوصى بوجوب تحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين والإقلاع نهائيا عن الخطة التي ترمي إلى جعلها دولة يهودية.

لا نظن أن السناتور المحامي جورج ميتشيل لديه وقت ليطلع على مثل هذه الأمور التاريخية. فهو محام رائج في الولايات المتحدة، وكان قد علل في تصريح له بأمريكا سبب تأخره وتأخر لجنته في الحضور منذ قرابة ثلاثة أشهر إلى بلادنا، بأنه غير متفرغ لهذه المهمة، وأنه محام يملك أربعة وعشرين مكتبا للمحاماة في الولايات المختلفة، فكان لا بد من تدبر أمر تلك المكاتب وأولئك الزبائن قبل الحضور إلى الشرق الأوسط. والغريب أن اللجنة التي تأخرت ذلك التأخر كله، وحضرت مرة واحدة بعد أكثر من شهرين على قرار تشكيلها لم تمكث في البلاد أكثر من ثمانية وأربعين ساعة.واقتصر نشاطها على الاستماع إلى بعض الوزراء والفعاليات والرسميين ولم تقم بأية جولة ميدانية. وفي تلك الأثناء استمرت الجرائم والفظائع التي يقترفها عسكر باراك على الأرض في الضفة والقطاع المحتلين تتجاوز المألوف في فظائع أشد المحتلين بغضا وعنصرية ووحشية. فصارت الاغتيالات الفردية سياسة إسرائيلية رسمية، وجرى تحويل المدن الفلسطينية إلى مجموعة من الأقفاص البشرية بواسطة محاصرتها بالدبابات مع إطلاق النار على الفلسطينيين من مختلف أنواع الرشاشات الآلية الثقيلة ومدافع الدبابات وصواريخ طائرات الهليوكوبتر، وسجلوا أرقاما قياسية جديدة في أعداد القتلى يوميا، وراحت جرافاتهم تكمل عملها نهارا في اجتثاث الأشجار من كروم زيتون وبيارات برتقال ودفيئات خضار، وتجرف ليلا بيوت الناس ومصانع الناس على الشوارع الرئيسية، لتتكرر مأساة هجرة عام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٧. وفي تلك الأثناء كابد الناس في قطاع غزة مثلا زحف الجرافات على جميع المساحة التي قرر قائد المنطقة الجنوبية بجيش الاحتلال أنه (مجال حيوي) للمستعمرات وللأوتوستترادات الخاصة التي تصل بين المستعمرات بعضها وبعض والتي تصل بينها وبين أراضي ٤٨! والحديث عن المساحات المنهوبة في قطاع غزة حصرا حديث حدي، لأن المستعمرات التي أقيمت على حدود القطاع الشمالية والجنوبية وبين المدن الثلاثة الرئيسية وعلى طول الشواطئ الجنوبية من دير البلح إلى رفح، لم تترك للمليون فلسطيني ونيف إلا أقل من ٦٠% من مساحة القطاع التي لا تتجاوز بمجموعها ٣٤٠ كيلومترا مربعا، أي أن التعداد الذي أشرنا إليه يعيش على حوالي ٢٠٤ كيلومترات مربعة، هي الأرض المتاحة للإسكان والزراعة والصناعة والمرافق والشوارع والمقابر والمساحات الخضراء، وبعملية

قسمة بسيطة يتضح أن معدل حصة الفرد من الأرض هي حوالي ٢٠٠٠, كيلومتر مربع. ويبدو أن سياسة التهجير الخفية التي يتبعها باراك تسعى إلى التضييق على الناس ومن ثم تهجيرهم لاحقا.

وقد بدأ ذلك كله وزاد واستفحل بينما لجنة (تقصي الحقائق) برئاسة ميتشيل جالسة في آخر الأرض لا ترى ولا تسمع ولا تتكلم حتى شك الناس بأن تمهل ميتشيل ولجنته في القدوم أمر مقصود، أريد منه ترك الاحتلال يعمل على راحته دون أن يقلقه وجود هيئة دولية في الجوار. ثم سمعنا أن إسرائيل رفضت السماح للجنة بالحضور إلا بعدما تعهد الأمريكيون أن لا يكون في تقرير اللجنة ما يمس خاطر باراك الرقيق من قريب أو بعيد! فلما حضرت في سياحنها الماضية لمدة ٤٨ ساعة، زودها المسؤولون في وزارة الصحة والزراعة والإسكان بصور من وثائقهم وإحصاءاتهم، وكان بمقدور رئيس اللجنة وأعضائها أن يلاحظوا إذا لم يكونوا مطعمين ضد الملاحظة التفاصيل المعبرة التي هي أقوى دلالة وأصدق تعبيرا عن الكلام العام والأرقام الصماء ومن آلاف التفاصيل الرهيبة الطريقة التي استخدمها الجيش الإسرائيلي في قتل وجرح الأطفال الفلسطينيين، وأن يطلعوا من أرشيف المستشفيات على أنواع كسور عظام الجمجمة لدى ضحايا جرائم المستوطنين، وعلى الصور الشعاعية التي تبين أنواع الرصاص المتفجر في أحشاء غيرهم، كما كان بمقدورهم أن يسألوا أصحاب البيوت كيف تم جرف بيوتهم بعد هدمها ليلا. وأن يسألوا صاحب بيت في منطقة المغراقة بغزة كيف جرفت الجرافة بيته بينما كان حماره مربوطا أمام البيت فقطعته شفرة الجرافة ولم ترحم حتى البهيمة الخرساء! وأن يسألوا أبناء الجعفراوي الخمسة في منطقة دير البلح كيف جرفت الجرافات مصنع الألومنيوم والبيوت الخمسة التي شيدوها لسكنهم الخاص ولم يسكنوها بعد. وأن يسألوا آل أبو هولي كيف اقتلعت بيارات برتقالهم وكروم زيتونهم وكيف ردمت آبارها في الليل البهيم، وأن يسألوا آل أبو هداف كيف اقتلعت أشجار زيتونهم أمام نواظرهم. وكان بمقدورهم أن يبعثوا أحدا من السكرتاريا الخاصة باللجنة ممن ليس لديهم ٢٤ مكتب محاماة ليسير قليلا مع القرويين هناك ليعرف منهم كيف ألقى الجيش الإسرائيلي بركام البيوت والمصانع المدمرة في الوديان وكيف أهال عليها التراب ليخفي الجريمة الشنيعة.

لقد رحلت لجنة استقصاء الحقائق برئاسة ميتشيل في المرة السابقة دون أن تبدي الحد الأدنى من الاحترام للشرعية الدولية التي أوفدتها بغرض وضع العالم في صورة ما يجري في فلسطين. وبدا كما لو أن جورج ميتشيل في عجلة من أمر (الصدقة) التي يدفعها من وقته للأمم المتحدة، فهو يبذلها وفق هواه وكما تسمح له ظروف مكاتب المحاماة الأربعة والعشرين التي يملكها في الولايات المتحدة.

أما في هذه الأيام، فإن الأخ وزير الإعلام يعبر عن (خيبة الأمل) من أن جورج ميتشيل أعلن يوم الثامن عشر من كانون الثاني الجاري أن لجنته تخطط لزيارة المنطقة بعد منتصف شهر شباط فبراير القادم مباشرة، بينما تتحدث الصحف الإسرائيلية عن ضغوطات هائلة تمارسها الحكومة الإسرائيلية على اللجنة وأعضائها كي يؤجلوا قدومهم إلى المنطقة إلى ما بعد الانتخابات الإسرائيلية.

الخلاصة أننا مهما حاولنا التفاعل مع السيرك السياسي العالمي وألعاب الخفة الدائرة فيه، فإن هذه الألعاب لم تعد تجوز على الإنسان الفلسطيني الذي راقبها زمنا طويلا منذ بدايات القرن الماضي فافتضحت له أسرار اللعبة وتبين حقا إن الأمم المتحدة تعكس صورة مجتمع دولي وحيد القرن ممسوخ الضمير.

نحن نقول منذ زمن بعيد إن انفراد الولايات المتحدة بما يدعى عملية السلام قد عاد علينا بأضرار كبرى. وأقل تلك الأضرار وقفة كلينتون في أعقاب فشل قمة كامب ديفيد ليقول دون حياء إن الفلسطينيين هم الملومون في عدم التوصل إلى نتائج للمؤتمر. وهكذا قلب الحقائق رأسا على عقب، وسار في ركاب الباطل صاغرا، بينما كانت امرأته تتملق الناخبين اليهود في نيويورك بمناداتها بفرض عقوبات ضد الفلسطينيين.

ونفكر أحيانا إن الصواب والحال كذلك هو إدخال الأمم المتحدة طرفا أساسيا في العملية فإذا بنا نجد الولايات المتحدة نفسها تعود بوجه جديد مرتدية البيريه الزرقاء.

أليس من الجلي بعد ذلك كله أن التركيز على إيجاد قوة عربية إسلامية في المنطقة، يكون لها وزنها وإرادتها وهيبتها ومصداقيتها، هو المخرج الوحيد مما نحن فيه؟

لقطات الأسبوع :

* لا نعرف ماذا نفهم من كلام الرئيس الأمريكي بوش حين تحدث قبل حوالي أسبوعين عن السياسة الخارجية للولايات المتحدة في عهده قائلا إنها ستكون سياسة متواضعة. وحين قال : إننا لا نريد أن نقدم وصفات لآلام الشعوب.

* نأمل أن يكون في رحيل إدارة كلينتون ما يبعد عنا بعض المناظر التي تبعث الغم بصورة شبه دورية، وفي مقدمتها منظر المرأة أولبرايت وهي تكشف عن ساق أثناء وضعها فخذا على فخذ في محضر هذا الرئيس أو ذلك المليك، وكذا منظر الغلام البالغ أحمر الأنف ثقيل الظل ذي النظارة الطبية روس وهو ينزل من السيارة وفي انتظاره المستقبلون.

* وبالمناسبة يتساءل الإنسان : إذا كان عهد روس وأمثاله قد انتهى في قسم الشرق الأوسط بوزارة الخارجية الأمريكية، فبأية صفة يستمر في الإدلاء بتصريحات سياسية كأنه ما زال يملك صفة ما؟

ثم.. ألا يرى المسؤولون الأمريكيون أن الغلام ثقيل الظل بصق في وجه الدبلوماسية الأمريكية حين قال أول أمس لصحيفة جيروساليم بوست الإسرائيلية إنه وهو اليهودي كان "يشعر بالألم عندما يشكك الفلسطينيون بالروابط التاريخية اليهودية بالمسجد الأقصى خلال المفاوضات المتعلقة بمدينة القدس ".

نحن مع حقوق اليهود في الولايات المتحدة تماما. أن يشتغلوا بالتجارة ويجمعوا الملايين، ويرسلوا تبرعات لإسرائيل.. كله من حقهم. ولكن أن يعين وسيط أمريكي للسلام على مثل هذه الحساسية ضد الحق العربي والإسلامي ومع دعاوى الطرف الآخر، فذلك ما يلقي علينا بإلحاح سؤال : لماذا نقبل بوسيط مؤهل مبدئيا للحماس لوجهة نظر خصمنا؟

* لو يعرف الناس قيمة المناطق التي يطلق عليها المواصي لهانت في عيونهم أخصب الأراضي

* مفاوضات مكثفة؟ أكثف من مفاوضات ثماني سنوات بقضها وقضيضها؟!

* اشتكى والد شهيد كان قد قتل على يد بعض أفراد الأجهزة من أن قاتلي ولده أخرجوا من السجن أثناء الأيام الأولى لانتفاضة الأقصى وراحوا يذرعون الدنيا جيئة وذهابا أمام ناظري الوالد المفجوع علما بأن المحكمة سبق أن أدانتهم وكانوا يقضون في السجن فترة العقوبة.. برسم السيد وزير العدل..